من هيوم إلى كانط، حُضور الشكّ في إيقاظ مَلَكة النقد

From Hume to Kant, presence of doubt awakens the power of critic

شهرزاد حمدي[1*]، لخضر قريسي[2]

[1] جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مخبر المجتمع الجزائري المعاصر، الجزائر،
ch.hamdi@univ-setif2.dz

2 جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مخبر المجتمع الجزائري المعاصر، الجزائر،
lakhdarphilos@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/02 تاريخ القبول: 2023/04/02 تاريخ النشر: 2023/05/04

مُلخّص:

تهدِف ورقتنا البحثية إلى الكشف عن أهمية منطق الحُضور وتلقِّي الأفكار من خِلال إبراز قُوّة العلاقة بين **"هيوم"** و**"كانط"**، بالتحديد حول تأثير الشكّ في إيقاظ مَلَكة النقد، مع ضَمان حقّ الاختلاف على مُستوى المنهج والمضمون. وعلى هذا الأساس، توصّلنا إلى إدراك قيمة فضيلة التلقّي في الفكر الفلسفي بوصفها مفتاحًا للاستمرارية بالجديد، وتقدُّم شكّ **"هيوم"** كأحد أهمّ ركائز قيام نقد **"كانط"** في عِدّة نقاط، وأن هذه الحقيقة لم تمنع من بناء مواقِف خاصّة ورؤى مُختلِفة.

كلمات مفتاحية: الشكّ؛ النقد؛ التلقّي؛ الاتّفاق؛ الاختلاف.

Abstract:

Our research paper aims to reveal the importance of the logic of presence and receiving ideas by highlighting the strength of the relationship between **"Hume"** and **"Kant"**, specifically on the influence of doubt in awakening the power of critic, while ensuring the right to differ at the level of method and content. On this basis, we have come to realize the value of the virtue of receptivity in philosophical thought as a key to continuity with the new, and Hume's doubt was presented as one of the pillars of Kant's critic at several points, and that this fact did not prevent the construction of special positions and different visions.

Keywords: Doubt; Critic; Receive; Agreement; Difference.

*المؤلف المرسل

1.مقدمة:

ما يُميّز الأفكار أنها لا تتلاشى إلى حدّ الإعلان عن موتها، فقد تتراجع لصالح انبثاق أخرى، لكنّنا دائِمًا ما نجد حياتها ولو في غير زمانها ومكانها. ذلك ما يُمليه منطق الحُضور Presence والتلقّي Receive؛ إذ تتلاقى الأفكار وتلتقي العقول بمُختلف مناهجها ومضامينها في جمالية من الاتفاق Agreement والاختلاف Difference، وتستقبِل مَلَكة الفهم الخاصّة بشخصية فكرية مُعيّنة وتُقبِل على إنتاجات غيرها، ويحضُر البعض من هذه الأفكار في سِلسلة أخرى عن طريق قناة التأثير. وتأتي فضيلة التلقّي والحُضور وتفاعلاتهما كأبرز مفاتيح تطوّر المعرفة البشرية بعامّة والفكر الفلسفي على وجه الخُصوص. ضِمن هذا السياق تتقدّم حالة تأثير الفيلسوف الإنجليزي **"ديفيد هيوم" David Hume (1711 _ 1776م)** بواسِطة الشكّ Doubt في إثارة مَلَكة النقد The power of Critic عند الفيلسوف الألماني **"إيمانويل كانط" Immanual Kant (1724 _ 1804م)**، وإيقاظه من مرقد الوثوقية Dogmatism. ومن أجل الشُروع في بحث هذا الحُضور، ننطلِق من الإشكالات التالية: كيف حَضَر **"هيوم"** في "فلسفة **"كانط"**؟ وماهي تفاصيل هذا الحُضور وتجلّيات هذا التأثير؟ وإذا كان الاتفاق قد حدث بينهُما، فهل حالَ ذلك دون تسجيل نقاط اختلاف؟ أمّا فيمَا تعلّق بمُشكلات البحث والإجابات المقترحة عليها، فهي:

_ قيمة منطق الحُضور والتلقّي في استمرارية الأفكار وتوليد الجديد منها.

_ التأثير المشهود له **"لهيوم"** في فلسفة **"كانط"** من خِلال دعامة الشكّ في إثارة النقد.

_ التعاطي بالاتفاق والاختلاف في منحى حُضور الأفكار ومناهجها.

ولكلّ بحث جُملة من الأهداف يسعى الباحث إلى تبليغها لحظة التحقّق، ومنه يهدِف بحثنا إلى:

_ التدليل على قيمة تلقّي الأفكار والتفاعُل معها، وأهمية منطق الحُضور في مسيرة الفكرة.

_ التأكيد على الرابطة الفلسفية القوّية التي تصِل **"كانط" "بهيوم"**.

_ إزالة الفهم الخاطئ حول مسألة حُضور الأفكار وتلقّيها، بالتحوّل من فهم التبعية إلى فهم التأثُّر مع الاستقلالية. ولقد حاولنا حلّ هذه المشكلات من خِلال اتّباع المنهجية التالية:

_ ضبط مفهوم الشكّ والنقد والعلاقة بينهُما.

_ في جوانب الاتفاق والتقاء المواقِف.

_ في جوانب الاختلاف وافتراق المواقِف.

ولكلّ عُنصر من العُنصرين الثاني والثالث عناصِر وتفاصيل شارِحة له.

2.الفلسفة وسؤال المفهوم، بحثٌ في معاني الشكّ والنقد

من الأسئلة المتميّزة التي تُثار بكثافة نوعية دائِمًا، نجد سؤال المفهوم، الذي ينشغِل به العقل ويُركّز بحثه عليه. ويرتدّ هذا الانهمام إلى كونه القاعدة الأساسية لكلّ عِلم؛ إذ لم يسبِق وأن تأسّست منظومة عِلمية مُعيّنة من دون أن تكون لها مرجعية مفهومية خاصّة، ولن يحدث هذا، لأن المفهوم هُوّية ذلك العِلم. وترتبِط مسألة صياغة المفهوم والانكباب حوله بقلَق مُتزايد بالفلسفة، التي تتّسِم في اشتغالها حوله في كونها تحترِق وتخترِق، وهذا ما جعل علاقتها به على مَدار تاريخها، علاقة إبداعية مُولِّدة، فهي الصانِع والمبدِع للمفاهيم حسب ما جاء في توصيف الفيلسوف الفرنسي **"جيل دولوز" Gilles Deleuze (1925_1995م)**، حينمَا كتب كتاب: ماهي الفلسفة؟ مع مواطنه **"فليكس غواتاري" Félix Guattari (1930_ 1992م)**، وأعلنها من دون التباسات، وفَصَل في الأجوبة بلفظة واحدة: أنها إبداع المفاهيم[1]. لقد اختارَ لها من بين عديد المهمّات الممكنة، مُهمّة الاشتغال المفهومي والصِّناعة المبدعة للمفاهيم، في دلالة واضِحة على الإمكانات الممنوحة للفلسفة من أجل القيام بذلك.

1.2مفهوم الشكّ:

يتقدّم الشكّ كأحد أبرز المفاهيم الفلسفية الحاضِرة بقُوّة في مُدوّنة كلّ فيلسوف، ومِثلمَا هو الإيمان يتّخِذ الشكّ عِدّة أشكال مُتباينة، من شُكوكية Scepticism القُدامى إلى شُكوكية التجريبية العِلمية الحديثة، ومن الشكّ المتعلِّق بآلهة مُتعدِّدة إلى الشكّ بإله واحِد، ومن شكّ يُعيد إحياء الإيمان إلى شكّ عيّنه الكُفر [2]. يتّضِح إذن، أنّ الشكّ ليس نمطًا واحِدًا ولا يختصّ بفِئة مخصوصة في فترة مُعيّنة، إنّما عرفه الفكر البشري منذ فترات سابِقة، وقدّ تجلّى في أنماط عديدة، منها ماهو قديم ومنها ماهو تجريبي عِلمي حديث، ومنها ماهو ديني ارتبط بالشكّ في الآلهة المتعدِّدة أو الإله الواحِد، ومنها من يبعث الإيمان مرّة جديدة بعد تجربته ومنها من ينتهي إلى النُكران والجُحود. ويُعرِّف **"الجرجاني"** الشكّ بأنه "التردُّد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاكّ، وقيل الشكّ: ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجّح أحدهما وطُرِح الآخر فهو ظنّ، فإذا طرحه هو غالب الظنّ، وهو بمنزلة اليقين"[3]. لا يختار الشكّ ولا ينحاز إلى أحد الطرفين، وإلاّ تحوّل إلى ظنّ الذي إن طرح أحد النقيضين أصبح بمرتبة اليقين. ولا يُميّز الشكّ ولا يُرجِّح بل يستوي الطرفان عنده ويتقاسَمَا نسبة التشكيك فيهما. وتُطلق كلمة شاكّ في اليونانية على كلّ من يُمّعِن النظر، ويَفحص باهتمام، قبل أن يُصدِر حُكمًا أو أن يُقرِّر[4]. يتّسِم الشاكّ بالعُمق ونُزوعه للمُدارسة والمحاكمة، والتريُّث بَدَل التسرّع والسَطحية والقبول المباشر في النُطق بالحُكم أو التقرير. وينقسم الشكّ إلى مذهبي الذي ينطلق من الشكّ وينتهي إليه في حلقة مُفرغة، بينمَا الشكّ المطلوب للوصول إلى الحقيقة إنّما هو الشكّ المنهجي، الذي يُشكّل عَمَلية أساسية للمنهج الفلسفي

على حسب الفيلسوف الفرنسي **"روني ديكارت" René Descartes (1596_1650م)** حينمَا فكّر أنه من الواجب عليّه أن يستبعد كل ما قدّ يتخيّله موضع شُبهة وارتياب، ويشطِبه لكونه فاسِدًا بإطلاق، من أجل أن يرى ماذا سيتبقّى له فيمَا بعد من أمرٍ ثابِت وصحيح، يمنحه ثقته الكامِلة[5]. وهذا هو معيار البداهة والوضوح الذي يُعيّنه **"ديكارت"** للحقيقة، ولذلك اتّخذ الشكّ المنهجي أداة لإدراكها، فمَا يُميّزه أنه شكّ مُنظّم لا يهدف إلى الشكّ في حدّ ذاته، بل ينطلِق منه لكنه ينتهي بالتسليم والقناعة، ببصيرة وبيّنة تجلّت في منهج الشكّ. إذن، يُمثِّل الشكّ حالة فلسفية منهجية لتمييز الأفكار والأشياء وتقويمها من ثمّ الحُكم عليها، فهو دُربة فاحِصة ضَديدة للقبول المباشر والإقرار باليقين مُنذ البِداية.

2.2مفهوم النقد:

على سيرة الشكّ، يتقدّم النقد كروح للاشتغال الفلسفي الاحتجاجي والمناهِض لكلّ السُلط على اختلافها، ولكلّ الموافقات من غير مُحاكمات، فهو فَحص مبدأ أو ظاهرة، بهدف الحُكم عليه أو عليها، حُكمًا نمطه تقديري أو تقويمي[6]، فالنقد كالميزان يُقدِّر ويُقوِّم قيمة الفكرة أو الشيء. ومنه الموقف النقدي الذي نُلخِّصه في كونه بدلاً من أن نعتبر مُباشرة الأشياء معلومة، حرّيٌ بِنَا أولاً أن نتساءل (مهمَا يكُن الجواب الذي سُنقدِّمُه في نهاية الأمر عن هذا التساؤل) كيف ومن أين لنا أن نعلم ما نعلمه[7]؛ أيّ أن نبحث عن كيفية حُصول هذا المعلوم ومصدره، وأن نُباشِر في طرح التساؤل، بِصَرف النظر عن الجواب الذي سيكون في النهاية إن كان سيُؤيّد هذا المعلوم لدينا أم سينفيه. وللفلسفة علاقة قوّية بالنقد، تتعدّى مُستوى أن يكون أحد الركائز إلى الركيزة والماهية، لدرجة أن هُناك من لا يعتبر النقد أصلاً منهجًا، فقط لأنه روح الفلسفة. ويتطلّب هذا الارتباط اللصيق والنظم الوثيق، وعلاقة الفلسفة بالنقد بعُموم القول، إلى تشخيص دقيق ومُستمر، فبِقدر ما نُمارس فِعل التفلّسف يتجدّد معنى ومُحتوى النقد ذاته، لأنّ النقد ليس عبارة عن كتلة فكرية تنتظرنا عند المحطة الأولى بعد انطلاقنا في فِعل التفكير، بل لمسة منهجية تجعلنا دومًا نبحث عنها ونتتبّع آثارها وبصماتها، من أجل أن نتعلّم من خِلالها ليس فقط كيفية الدفاع عن أفكارنا بقُوّة الحجّة والبُرهان، بل أيضًا كيفية الانعتاق من أسرها حينمَا نتأكّد من ضُعفِها أو حتى بُطلانها[8]. لا يُشكِّل النقد ذخيرة فكرية جاهزة تنتظِرنا من دون عنّاء عند أوّل محطّة لنا بعد الانطلاق في فِعل التفكير، إنّما هو مُتجدّد ومُتدفّق في سيرورة لا تتوقّف في مرحلة ما أو تتعيّن في مرحلة مُسمّاة، باعتباره لمسة منهجية مُتميّزة تدفعنا للحاق بها دومًا بحثًا عنها وتعقُّبًا لآثرها وما تُخلّفه. حتى نكتسِب رؤية نقدية لا نتعلّم بالاستناد إليها كيف نُحاجِج على أفكارنا بقُوّة الحُجّة والبرهنة فَحَسب، بل الأهم أن لا نرتهن لها بل نُعيّرها بمِعيار النقد، ونتحرّر منها في حالة تثبُّتِنا من هَوانِها أو حتى كذِبها. بهذه الأفكار المقدّمة، يتّضح مفهوم كلّ من الشكّ والنقد، كمَا

تتجلّى الخاصيّة التي تجمعها في أنّهُما يُؤسّسان لرؤية ترفُض القبول المباشر والتسليم الفوري من دون فَحَص ولا مُباحثة ولا مُدارسة. ولنا في الشكّ والنقد الفلسفيين نموذجين بارِزين، عُرِفَا بانتهاج كلّ واحِد لأحدهما، مع أن حقّ القول يتعيّن في أن الاستخدام كان لهُمَا معًا. ولأن فضيلة العِلم والفكر الفلسفي هي التراكُم، ومِفتاح تقدُّمه واستمرارية تواجده هو الحُضور بالتأثير، كذلِك الأمر سيتجلّى مع الحُضور بالمطرقة الشكّية **"لديفيد هيوم"**[9] في إثارة الروح النقدية **"لإيمانويل كانط"**[10].

3.في جو انب الاتفاق والتقاء المو اقِف

إنّ المتفحِّص لأفكار كلّ من **"ديفيد هيوم"** و**"إيمانويل كانط"**، سيلحظ بوضوح نقاط التلاقي بينهُمَا، وتمكُّن الأول من التأثير في الثاني القائِل بأنّ **"هيوم"** قد أيقظه من سُباته، والقصد أنه نبّهه إلى عديد الأمور، وأخرجه من دائِرة الوثوقية نحو اعتماد النقد، رغم بعض الاختلافات، وهذا بطبيعة العقل الفلسفي الذي دائِمًا ما يضمن لصاحبه مساحة للتفرُّد.

1.3الرِّهان على الشكّ والإيمان بالنقد

تبيّن **"لهيوم"** حالة القُصور والهوان التي تعتري المناهج الفلسفية والعُلوم؛ حيث يُلقي بسِهام النقد عليها ويُثير موجة من الشكّ بخُصوصها، ويُصرّح أنه من السهولة بمكان لمن يتمتّع بمَلَكة الحُكم أن يتحسّس ذلك الأساس الواهي الضَعيف لتِلك المناهج التي حَظيت بقيمة كبيرة وتعالت بزُعمها بالعَمليات الفكرية العَميقة والدَقيقة. ولا يتطلّب الأمر معرفة عميقة جدًا من أجل أن نكتشِف النُقص الذي يتخلّل العُلوم في الراهِن، إلى درجة أن الرعاع خارج الأبواب بإمكانهم أن يُحكموا بأن الذي يجري بالداخل ليس على ما يُرام انطلاقًا من الفوضى والعجيج الذي يسمعونه[11]. ينتقِد **"هيوم"** المناهج المسيّطرة في عصره، ويرى أنها واهِية من دون سند عِلمي رصين، وأن القيمة التي نالتها لا تستحقها، فهي مُجرّد مُدّعية بالعُمق والدِّقة من العَمليات الفكرية. ولا يحتاج الوضع المأزوم شرط المعرفة العَميقة جدًا حتى يُكتشف أمر النُقص بالنسبة للعُلوم الراهِنة، ولا أن يقتصر الأمر على أن يكون المكتشِف من الداخِل، بل يستطيع ذاك الذي يسمع من الخارج أن يُدرِك حجم النُقص. نفهم من هذا الموقِف، أن **"هيوم"** ينتقِد ويُثير الشكّ بشأن المناهج الفلسفية والعُلوم والمعارف خِلال عصره، وتُسمى ريّبيته، بالريّبية الملطّفة Mitigated scepticism. يجعلنا نرتاب بكلّ نظرية ورواية لا تُؤكّدها التجربة، ويدعونا إلى الاعتراف بجهلنا بطبيعة الأشياء والارتباط الكامِن بين الأحداث وبعجزنا عن الولوج إلى أسرار هذه الآلة الكبرى التي تُدعّى بالعالمين[12]. هي ريبية مُعتدِلة، ليست بالمتطرّفة التي تنطلق من الشكّ وتنتهي عنده، يدعونا إلى تفعيلها بشأن كلّ شيء لا تُثبته التجربة، لأنه حِسّي النزعة، بالإضافة إلى الإقرار بعدم الدِراية بطبيعة الأشياء والاقتران الخفي بين الأحداث واستحالة تُمكّنِنا من

اختراق أسرار الطبيعة البشرية، مشروعه الأساس. نفهم إذن، أن **"هيوم"** يُقرّ بعجزنا عن إدراك النهائي والولوج إلى عُمق الطبيعة البشرية، واكتشاف الكامِن. لكن، ألا يُشكِّل هذا تقييدًا للقُدرة البشرية وحَصرًا لمهمّة العقل البشري في حُدود مُعيّنة بعيدًا عن كشف الأسرار وإدراك الكامِن الخفي؟

أمّا عن **"كانط"** فقد كان في البِداية مُتأثّرًا بالتيار الوثوقي أو الجُمود الدوغماطيقي (التجريبية والعقلية)، وهي المرحلة قبل النقدية التي تُمثِّل طفولة العقل والثِقة الكاملة بالمبادئ من دون نقدٍ مُسبق. ثمّ تأثّر بالنزعة الشكّية، وعلى الرغم من أهمّيتها إلاّ أنها تُشكِّل رقابة على العقل فحَسَب وليست نقدًا له. بعدها انخرط في النقدية[13]، وأصبح إسمه يرتبط بصفة مُباشرة بالفلسفة النقديةCritical philosophy. لقد تطوّر فكر **"كانط"** وتوجّهاته، فلم ينحو مباشرة نحو النقد، وإنّما مرّ بمراحِل فاصِلة، فبعد أن كان وثوقي النزعة يثِق بالمبادئ ونتائجها من دون شكّ في طبيعتها ومَداها، تحوّل إلى اعتماد الشكّ، لكنه لم يرى فيه القُدرة على نقد العقل وهو مشروعه الجوهري، بل مُجرّد رقابة تتّبعه. ثمّ حصل وأن وجد ضالّته في المرحلة الأخيرة وهي النقد، الذي تجلّى في ثلاثيته النقدية: نقد العقل المحضCritique of pure reason ، نقد العقل العَملي Critique of practical reason ونقد مَلَكة الحُكم Critique of judgment. وبخُصوصه يؤكّد أنه يجب على العقل أن يخضع إليه (النقد) في كلّ مشاريعه، ولا يُمكنه تحت لواء أيّ حُجة أن يُسيء إلى حُرّيته من دون أن يبعث شُكوكًا تضرّ به. ولا وجود لأيّ شيء في غاية الأهمية من حيث الفائدة، ولا أيّ شيء مُقدّس جدًا يُمكن له أن يُعفى من هذا الفَحَص النقدي العَميق والدَقيق الذي لا يخاف أحدًا[14]. لقد تحوّل النقد من نزعة إلى منهج مُستقل، تخضع له جميع التصوّرات والمفاهيم والمبادئ، ولا يُمكن لأيّ شيء أن يفلت من قبضته، من ذلك العقل، وهو مملكة التصوّر والعَمليات الفكرية ينبغي أن يمتثِل لقانون النقد في كلّ المشاريع التي تختصّ بإسمه. ويُذكر أنّ ما يُميّز النقد الكانطي أنه تجاوز الفِعل النقدي المعتاد الدائِر في حلقة نقد الكتب والمسائل المعرفية إلى نقد العقل في حدّ ذاته كبنية فاعِلة مُنتِجة لشُروط المعرفة. بهذه الكيفية، يكون **"هيوم"** قد أثار النقد لدى **"كانط"** ونبّهه إليه، الذي قال عنه "أنه على الأرجح أحذق الريبيين وأشهرهم بلا مُنازع، بالنظر إلى التأثير الذي يُمكن أن يكون للمنهج الريبي على الحثّ إلى فَحَص أساسي للعقل (...)"[15]. إنه تصريح بِحَذَاقة فكره وقيمة منهجه الريّبي في الدفع بإلحاح لإجراء فَحَص نقدي رئيسي للعقل، لتتقارب أفكارهما من خِلال التفصيلات التالية:

2.3المشاركة في إعادة طبع مؤلّفهما الأول

كتب **"هيوم"** مُصنّف "رسالة في الطبيعة البشرية" A treatise of human nature كأوّل مؤلّف له، ثم سارع إلى طبعه، لكنه اصطدم بانطباعات سلبية من طرف القُرّاء، وذلك راجِع إلى الأسلوب الذي كُتِبت به

الرسالة؛ حيث اتّصفت بنسقية عالية مِمّا جعل مضمونها لا يُفهم، فالنسق عبارة عن مرآة تفكّر المتوحّد إلى نفسه[16]. وكأنّ **"هيوم"** يكتُب لنفسه، ولا يفهم كتاباته إلاّ هو نفسه، ثمّ إن نسقية الرّسالة جعلتها تسقُط في الغُموض، فالأسلوب مُعقّد ومُتشابِك كمَا يفرِضه النسق. فجاء كتابه الآخر: "تحقيق في الذهن البشري" A enquiry concerning human understanding لتصحيح الخطأ، فحاول أن يُسلِّط بعض الضوء على موضوعات ثبّط عدم اليقين فيها عزيمة الحُكماء إلى اليوم، وأحبَط ما فيها من الغُموض الجهلة، وأعلن أنه سيكون سعيدًا لو استطاع أنه يُوحِّد ما يعمل على الفَصل بين مُختلف أنواع الفلسفة، من أجل التوفيق بين عُمق التَحقيق ووضوحه، وبين الحقيقة والجدّة[17]. إنها مُحاولة لجلب القُرّاء وتقريب الفهم إلى الأذهان، بِداية عن طريق إعادة طرق الموضوعات التي رافَقَها ريبٌ دائِم، بحيث لم يُتوصّل فيها إلى اتّفاق وتواضُع حول موقِف مُحدّد، الأمر الذي كبح جِماح عزيمة الحُكماء، وأفشل غُموضها الجهلة، وتلحيم الشُقوق الحاصِلة بين أنواع الفلسفة المُختلِفة، سعيًا للجمع بين التَحقيق العَميق ووضوحه، والحقيقة وما يُستجدّ. ليتبيّن لنا الهدف من "التحقيق" الذي جاء ليُعالِج العَطَب، واستدراك الأمور الضائِعة، وإحقاق الوضوح كمَطلب رئيسي بعد تعيُّن الغُموض كأحد الأسباب الجوهرية لوقوع انطباع سلبي بشأن "الرسالة". سَنقِف عند ذات الموقِف الذي سيحصُل **"لكانط"** وذات الإجراء، فلقد انتشر بين جُمهور الباحثين زُعمًا قائِلاً بصُعوبة القِراءة له. يبدو أن مردّ هذا الادّعاء ما رواه بعض المؤرّخين، من أن **"كانط"** قد أرسل نُسخة خَطِّية من كتابه: "نقد العقل الخالِص" إلى أحد أصدقائه، المدعو هرتس Herz، فلم ينتهي من نصف الكتاب، حتى أعاده إليه مُعبّرًا أنه يخشى على نفسه من الجنون لو أنه واصَل قِراءة هذا الكتاب[18]. يُتّهم مرة ثانية الأسلوب ويتقدّم إلى مُحاكمة الانتقاد، بأنه السبب في نُفور الجماهير القارِئة مِمّا يكتُب، فالزُعم المُنتشِر بين شريحة الباحثين بأنه ليس من السُهولة بمكان أن تقرأ له، يعود في الأصل إلى الأحداث المُرافِقة لإرسال نُسخة من كتابه السالِف الذِكر. فأسلوبه مُعقّد ويكتنِفه الغُموض، وهذا الانطباع تجِده حتى لدى الفئة المترجمة لكتبه. سيعمل **"كانط"** بإجراء **"هيوم"**، ويكتب كتابًا آخرًا تحت عنوان: Prologomena، يُجيب فيه عن الأسئلة والانتقادات المطروحة بشأن "الكتاب الصّعب"، ثم يُعيد طباعته مرة ثانية بعد أن يُبسِّط الأسلوب، ليكون الانطباع هذه المرة مُغايرًا تمامًا، ليحظى باستقبال رائِع ويُصبِح مَدَار النقاش في كلّ الصالونات الثقافية[19]. إنها إعادة مُراجعة ضرورية وتغيير صيغة الكتابة إلى البسيط مع المحافظة على جوهر الفكرة، فالقارئ مُهمّ في سياق التفكير ونقل التفكير ومُستقبل هذا التفكير.

3.3أصل المعارف الإنسانية ومصدر أفكارها

هي واحِدة من الجدليات الأكثر بروزًا على مَدار تاريخ التفكُّر الفلسفي في سياق نظرية المعرفة Theory of knowledge؛ حيث اختلف الفلاسِفة بين من جعل العقل هو المصدر الأول للمَعارِف، وبين من انتصر للتجربة على أساس أنها المنبع، في حين ارتأى فريق آخر وأعلن التوفيق بين النزعتين وأنّ المعرِفة نِتاج مُشترك بينهُمَا. فكان **"هيوم"** قد أقرّ بطريق التجربة والحِسّ وأنه لا وجود لأفكار قبلية سابِقة عن الخبرة الحِسّية. بالنسبة إليه، تندرج جميع المدركات الحِسّية Perceptions للعقل البشري ضِمن نوعين مُتميّزين، يدعوهما بالانطباعات Impressions والأفكار Ideas. يكمُن الفرق بينهُما في درجة القوّة والحيوية، التي يقع فيها واحدهما على الدماغ ويشقّ طريقه إلى تفكيرنا أو وعينا. تُسمّى المدركات الحِسّية التي تدخُل بقوّة وعُنف أكبر بالانطباعات، تحت لِواء هذا المسمّى تنضوي كل أحاسيسنا، انفعالاتنا وعواطفنا كمَا تتبدّى لأوّل مرة في أنفسنا. أمّا الأفكار فالمقصود بها الصُور الباهتة كتِلك التي تجري في التفكير والمحاكمة المنطقية، مثلاً كالمدركات الحِسّية التي يُثيرها حديث راهِن، باستثناء تِلك التي تصدُر عن الرؤية واللَمَس، وباستثناء المتعة المباشرة أو الصُعوبة التي يُمكن أن تتسبّب فيها[20]. فالمُدركات الحِسّية هي الأصل في تكوّن المعارِف الإنسانية، وهي تضمّ صِنفين اثنين هُما الانطباعات والأفكار، يتحدّد الفرق بينهُما في قُوّة وحيوية الانطباع على الفكرة، التي تُعدّ صورة ضَعيفة وواهِية، بحسّها ما ظلّ في الذهن بعد زوال الانطباع. وفي سِياق الاعتقاد بوجود انطباع واحِد مُستمِر لمجموعة من الانطباعات المتشابِهة والمستقلة عنّا، ينفي أن تكون الحواس هي المسؤولة عن ذلك، لأنها لو كانت هي نفسها الدالّة على أنّ الصورة التي تُقدّمها إلينا هي صورة لأصل خارج عنها، لكان من الوجوب أن تُقدِّم لنا الأصل وصُورته معًا، لكنها لا تفعل ذلك. وليس العقل أيضًا، لأنه لو كان المسؤول لَلَزِم أن تكون النتيجة مُستمدة من المقدّمة، إذن من هو المعني بالأمر؟ إنه الخيال Imagination، الذي يدع نفسي تتخيّل أن هُناك انطباعًا واحدًا، وأنّني لو فتحت عيني أو أغمضتها، فإنّ ذلك لن يُغيّر من كون الشمس واحِدة مُتصلة بالوجود خارجة عن ذاتي ومُستقلة عن إدراكي[21]. إذن، يُعطي **"هيوم"** للخيال أهمية تتمثّل في كونه يُشكّل وسيطًا بين إدراكنا والشيء المدرك، وهو الذي يستدعي المعرفة من خِلال دفع النفس لتخيّل انطباعًا واحدًا لعِدّة انطباعات مُتشابِهة. ويستعين في ذلك بمبدأ الذاتيةThe principle of subjectivity أو مبدأ الهوّية The principle of identity، الذي يُدمِج ويُركّب بين ما هو مُتعدِّد مُستقِل لكن هُناك تشابُه شديد بين عناصِر (انطباعات) هذه التعدّدية[22]. فَلاَ الحواس ولا العقل من يُؤدّي هذه المهمّة، بل الخيال من يتولاّها بالربط بين إدراكات الذهن والموضوعات الخارجية المستقِلة. أمّا فيمَا يخصّ **"كانط"**، فقد تناول بدوره قضية أصل المعرِفة، مُسجِّلاً موقفًا يُمكن توصيفه بالتأليفي بين وجهتي نظر العقلانيين والحسّيين؛ حيث يُصرّح أن كلّ معرفتنا تبدأ مع التجربة ولا شكّ في ذلك

إطلاقًا، لأن قُدرتنا المعرفية لن تستيقظ إلى العَمَل إن لم يتم ذلك بواسِطة موضوعات تصدِم حواسنا، فتتسبّب من ناحية في حُدوث التصوّرات تلقائيًا، وتُحرّك من ناحية أخرى نشاط الفهم لدينا إلى مُقارنتها وربطها وفصلها. غير أنه ومع أنّ كلّ معرفتنا تبدأ مع التجربة، فإنها على الرغم من ذلك لا تنبثِق جميعها منها. لأنه من المشروعية أن تكون معرفتنا التجريبية عيّنها مُركّبة مِمّا يأتي إلينا من الانطباعات الحسّية، وما عن قُدرتنا المعرفية (المحفَّزة فقط بالانطباعات الحسّية) يصدُر تلقائيًا، ويُمثِّل إضافة لا نُميّزها عن المادة الأولية إلاّ بعد طول التمرّن الذي يُنبّهنا ويجعلنا ماهرين في التمييز[23]. فالتجربة هي مُنطلق معارِفنا، التي لا تبدأ إلاّ معها بصِفة قطعية، من خلال إيقاظ قُدراتنا المعرفية إلى العمل والنشاط بعد حدوث صِدام لحواسنا مع الموضوعات الخارجية. نفهم إذن، أنّ لدينا نشاطًا مخزونًا لكنه خام بحاجة إلى تنبيه التجربة كي يستيقِظ. إلى هُنا يتّفِق **"كانط" مع "هيوم"** في مكانة التجربة، لكنه سيختلِف معه حينمَا يُقرّ بأن معارفنا لا تنبثق كلّها من التجربة، لأنه من الجائز أن تكون هذه المعارف التجريبية مؤلّفة من مواد الانطباعات الحسّية ومن مواد مخزوننا الداخلي، تحتاج إلى خبرة ومِران حتى يقع لنا تمييزها عن المادة الأولية. وسيتّضِح هذا الاختلاف أكثر في الوقت الذي يُركّب فيه بين العالَم الذاتي والعالَم الظاهراتي مُتجاوزًا تطرّف خلوّ العقل من معارِف مُستقِلة عن التجربة، في التأكيد على أن كلّ معرفتنا تبدأ بالحواس وتنتقِل منها إلى الفاهِمة وتنتهي في العقل، الذي لا يلتقي شيء فينا أسمى منه، حتى يشتغل مادة الحدس Intuition ويُحيلها إل وحدة التفكير السامية The highest unity of thinking[24]. تتعيّن الانطلاقة لنشاط المعرفة وتكوّنها من الحواس، لتنتقِل إلى الفاهِمة ثمّ إلى العقل كأسمى الملكات، ليشتغل على مادة الحدس ويُحوّلها إلى وحدة تفكير سامية مُتعالية. إنها عملية تنظيمية مُتّسِقة تُثبت التكامُل بين العقل والحِسّ. سيلتقيان مرة ثانية، فيلسوف الشكّ وفيلسوف النقد، بالضبط في نُقطة إبراز أهمية المخيّلة، في الربط بين مُدركاتنا الحِسّية وتصوّراتنا الذهنية، وهي واسِطة بين الحساسية والفهم، من حيث هي حِسّية بما أنّها تُعطينا صُورًا هي دائِمًا في المكان والزمان، ومن حيث كونها تلقائية ومُبدعة؛ بمعنى أنها بإمكانها بطريقة أوليّة مُطابقة المقولات أن تُبدع رُسومًا تخطيطية أو رموزًا يُمكن أن تندرج تحتها الحُدوس الحِسّية[25]. بهذه الكيفية، يتجلّى الدور الهامّ للمُخيّلة بوصّفها وسيطًا فعالاً بين إدراكات الحِسّ ومعاني الذهن وبين الحساسية والفاهِمة، فهي موصولة بالجانب الحسّي لأن صُورها المعطاة دائِمًا ما تكون في إطار مكاني وزماني، وموصولة بالجانب الذهني لأنها تُطابِق المقولات على الحُدوس الحِسّية.

4.3نقد الميتافيزيقا الواهِمة والبحث عن المشروعة

تُعدّ قضية الميتافيزيقا Metaphysics من أهم القضايا التي طرقها العقل الفلسفي، بما أن الفلسفة في نهايتها ميتافيزيقا ولكن أيّ نوعٍ منها هو المطلوب؟ ستزداد حِدّة هذه القضية في سياق تقدُّم العُلوم التجريبية والرياضية، في حين تأخّر الميتافيزيقا وركودها المنهجي والمضموني. سوف يستدعي هذا الوضع انبثاق التفاتة شكّية ونقدية مع اقتراح البديل من **"هيوم"** و**"كانط"**. ستكون البِداية مع فيلسوف الشكّ، حينمَا حدّد الفرق الجوهري بين العُلوم الرياضية والعُلوم الخلقية والميتافيزيقية وعيّن مَدَار الأفضلية، في أن أفكار العُلوم الأولى (الرياضية) وهي حِسّية تأتي دائِمًا واضِحة ومُتعيّنة، نُدرك مُباشرة أصغر تمايُز فيمَا بينها، وحُدودًا بعيّنها تُعبّر دومًا خِلالها عن أفكار بعيّنها من دون غُموض أو تغيير. بينمَا ألطف مشاعر الذهن وأفكار الفاهمة ومُختلف تقلّبات العواطف، وعلى الرغم من أنها مُتميّزة حقًا في ذاتها، إلاّ أنها تفلت منّا بسهولة في الوقت الذي تخضع فيه للتفكير، ولا نملِك القُدرة في استدعاء الشيء الأصلي كُلّما أتيحت لنا الفُرصة لتأمّله، وبهذه الطريقة يدخُل الغُموض بالتدريج تعليلاتنا، فيختلِط علينا الأمر؛ حيث نحسِب أشياء مُشابهة بسُهولة أنها أشياء بعيّنها، وتنحرِف النتائج في الآخير كثيرًا عن المقدّمات[26]. يبدو إعجاب **"هيوم"** بالعُلوم الرياضية جليًّا، في كونها حِسّية وواضِحة لا يتخلّلها اللُبس ولا تبدّل لما تُعبّر عنه أفكار مُعيّنة عن حُدود مُعيّنة، على خِلاف العُلوم الخُلقية والميتافيزيقية التي يسودها الغُموض والاضطراب والخَلَط، فهي غير دقيقة وواضِحة. هذه هي الميتافيزيقا الواهِمة واللقيطة التي لن تتقدّم خُطوة واحِدة، ولهذا "إن الجهد كلّ الجهد في تخليص الميتافيزيقا من نفسها، وفي تحويل منهجها عن دقّة يدقّ بها موضوعها عن الفهم ويستغلق، إلى دقّة تتدقّق بها آلة الفَحَص حتى يصبح بصرها بموضوعاتها من مُزامنات بصرها بنفسها، ذاك هو شرط عِلم الطبيعة الإنسانية"[27]. فالخطر مُتأتّي من الميتافيزيقا نفسها بسبب منهجها وموضوعاتها، إننّا بحاجة إلى تَحقيق وتَدقيق، إلى فَحَص ومُعاينة، حتى يتساوق بصرها بموضوعاتها ببصرها بنفسها، إنها الميتافيزيقا الحقّة، تِلك التي تحذر ما تطرقه بما يُمكنها تأمّله وفهمه، وتُبصِر نفسها بما تستطيع أن تُقدِّم وما الذي يُؤثِّر في عَمَلية الفهم وما الذي بإمكانها أن تجعله موضوعها، هذا هو الشرط لقيام عِلم الإنسان، الطُموح والمشروع الجوهري **"لهيوم"**. يطرح **"كانط"** قضية الميتافيزيقا ويحمِل همّ تأخّرِها، فيُبدي إعجابه بالأحكام المتعلِّقة بالعُلوم الرياضية والفيزيائية لأنها تصِل إلى شيء جديد، على خِلاف أحكام الميتافيزيقا العقيمة، ولهذا سيُحدِّد لها أحكامًا من نوعية مُختلفة[28]. تجدُر الإشارة إلى أنه آمن بها إيمانًا قوّيًا، غير أنه لم يقتنع بوصّفها ميلاً طبيعيًا في الإنسان، بل أراد أن تكون عِلمًا قائِمًا بذاته يتمكّن من الوصول إلى نتائج يقينية على غِرار نتائج العُلوم الأخرى. تتمثّل وسيلة تحقيق ذلك في تغيير المنهج السائد، يكون قادرًا على استيعاب مُتطلّبات العِلم وضروراته استيعابًا واعيًا، مع تحديد موضوع الدِراسة تحديدًا دقيقًا لا يبقى معه

مجالاً لتضارب الآراء بعدها النتائج. ويتساءل في كتابه الأهمّ: "نقد العقل الخالِص" هل يُمكن للميتافيزيقا أن تكون عِلمًا؟[29]. يلتقي **"كانط"** مع **"هيوم"** في مسألة إعجابه بالعُلوم الأخرى والقصد منها العُلوم الرياضية والفيزيائية، بالإضافة إلى نقد الميتافيزيقا السائِدة غير المشروعة بسبب اضطراب النقاش ضِمن حلقتها وهذا يعود إلى سوء المنهج المستخدم، ولذلك فالرّهان يتوقّف على استبدال المنهج لأجل تحقيق الدِقّة وتأسيس ميتافيزيقا مشروعة. وكذلك في اتّفاقهما معًا في كون الميتافيزيقا قد أضرّت نفسها بنفسها، فلقد "انتهت بأن قضت بنفسها على أصلها بأن تكون عِلمًا مصدقًا به على الدوام[30]. فكان سؤال هل يُمكن للميتافيزيقا أن تكون عِلمًا دلالة على إرادة تحويلها إلى ذلك، نعم يُمكن أن تكون عِلمًا سلاحها الإقناع بالحُجّة والدليل وليس التمويه، ينبغي أن يكون هُناك نقد للعقل نفسه يُقدِّم لنا ما نمتلكه من تصوّرات قبلية كذخيرة ويُقسِّمها وِفق مصادرها المختلفة: القوة، الحساسة، الذهن، العقل، وعِلاوة على ذلك يُقدِّم لنا النقد جدولاً كاملاً لهذه التصوّرات مع تحليل كامل للنتائج التي تتخلص منها[31]. فالنقد هو مفتاح قيام ميتافيزيقا عِلمية مشروعة، يبدأ بنقد العقل في حدّ ذاته وهذا جوهر تميّز النقد الكانطي، يمنحنا ما نمتلِكه بشكل قبلي من تصوّرات ويُقسِّمها بحسب منابعها المتنوّعة مع إرفاق جدولاً كاملاً تفصيليًا بهذه التصوّرات. وبهذه الكيفية تم نقد الميتافيزيقا الواهِمة وغير المشروعة سيّرًا بجملة من الشروط الموضوعة من **"هيوم"** و**"كانط"** اتّفقت واختلفت في بعض النقاط نحو الحقّة والمشروعة منها.

5.3مسألة الاعتقاد

خِلافًا للبرهنة وما يُمكن إثباته عن طريق الاستدلال العقلي والتجريبي، يؤسِّس كلّ من **"هيوم"** و**"كانط"** لما يُعرف فلسفيًا بالاعتقاد Belief حول مسائل دينية غيّبية لا يُمكن طرقها استدلاليًا وِفق منطق البرهان، تعتلي هذه المسائل: وجود الله The existence of god، خُلود النفسImmortality of the soul، أصل العوالَم The origin of worlds والحرّية Freedom. ويُرادِف الاعتقاد الايمان أو الرأي، وفي سياق تأسيس **"هيوم"** للدين الطبيعي Natural religion وجعله للدين منزع طبيعي في الإنسان، فإنه رفض إقامة الاستدلال العقلي والتجريبي بل واستحالته حول مسائل كأصل النفس وأصل العوالَم ووجود الله، ودعى إلى وجوب الشُعور بها وليس إخضاعِها إلى التجربة أو المحاكمة العقلية لأنّنا لن نجني شيئًا، فنحن فيها كأننا أجانب في بلد غريب يبدو لهم كل شيء مُريب وواهِم، في خطر من أن يعتدوا على قوانين وأعراف شعب يعيشون بينه ويتحدّثون معه[32]. تتجاوز مثل هكذا مسائل نِطاق قُدرتنا الإنسانية، وبالتالي فإن مُحاولة تعقّلها أو إدخالها في نِطاق التجربة هو هدرٌ للجهد، والأصّوب أن ننظر إليها بوصّفها موضوع اعتقاد. ويحتلّ الاعتقاد مكانة محورية في فلسفته، فيُعرّفه بقوله: "فكرة حيّة ذات صِلة أو ارتباط بانطباع راهِن"[33]، هي

فكرة قويّة وراهِنة ترتبِط بانطباع حسّي آني، مِمَّا يجعل الاعتقاد نِسبي ومُتغيّر بما أنه فكرة موصولة بما هو راهِني، فقد يتحوّل إلى ماضي في حالة توافُد فكرة جديدة حيّة راهِنية. يجب أن يُرضي الاعتقاد الخيال عبر القوّة والحيوية، فكلّ فكرة تمتلِك قوّة وحيوية يتّضِح أنها مقبولة لدى تِلك الملكة[34]. إن الخيال هو الملكة التي تُقرّر قبول فكرة بحسب قوّتها وحيّويتها التي يُقدِّمها الاعتقاد، ليترسّخ أكثر، فالاعتقاد إذن هو شُعور حيّ وقويّ. والنتيجة أن وجود الله وأصلّ النفس وغيرها ليست موضوعات للبرهنة وإنّما للاعتقاد. سيُسجّل **"كانط"** ذات الرؤية حول ما يُسمّيه بمُصادرة وجود الله، مُصادرة خُلود النفس ومُصادرة الحرّية[35]، ويرى أن هذه الغيّبيات هي موضوعات الميتافيزيقا التقليدية، وبحسّبِه هي موضوع للاعتقاد والتسليم لا أكثر، وجعل البرهنة على وجود الله مرهون بالقانون الأخلاقي[36]. لا يُمكن إذن أن يستدِل العقل أو التجربة على وجود هذه الموضوعات، والتي كانت مَدَار الميتافيزيقا القديمة، التي انحبست في دائِرة مُغلقة بسبب منهجها وطرقها لمثل هكذا موضوعات التي لا يستطيع الإنسان أن يُحقِّق فيها نتيجة دَقيقة وعِلمية، فجاءت دعوته للتسليم بها وفقط. وجعل **"كانط"** إمكان البرهنة على وجود الله رهن القانون الأخلاقي العالَمي الذي سعى إلى تأكيده، وهو الذي أقام الدين على الأخلاق. ينبغي الإشارة إلى أنه، إضافة إلى **"هيوم"** لم يُنكرَا وجود هذه الموجودات، بل أنكرَا أنّنا نمتلِك معرفة برهانية على وجودها، فهي في نهاية مطافِها موضوع اعتقاد[37]. ولكن بهذه الكيفية، يجد العقل البشري نفسه عاجِزًا عن تعقُّل واستدلال هذه الموضوعات، وتجد خبرته الحِسّية نفسها قاصِرة أمام معرفتها معرفة تامّة، وتُصبح معرفته بها معرفة احتمالية ريّبية قد تُصدّق اليوم وتُكذّب غدًا بفِعل انبثاق اعتقاد جديد. ثمّ إن الأخلاق نسبية في طبيعتها ومهما حاولنا إيجاد قانون عالَمي لها سيعترِض ذلك التغيّرات الحاصِلة وتبدُّل القيم، فكيف نُرهِن إثبات وجود الله وِفق منطق برهاني على هذا القانون؟

6.3مشروع عِلم الإنسان

بعد أن حقّقت العُلوم التجريبية والطبيعية تقدُّمًا كبيرًا بفِعل المنهج التجريبي، اهتدى بعض الفلاسِفة مِمّا انهمّوا بوضعية تأخُّر العُلوم الإنسانية، وهُنا برز مشروع عِلم الإنسان أو عِلم الطبيعة البشرية عند **"هيوم"** كعَصَب اشتغالاته وعيّن اجتهاداته، وقدّ أكّد عليه كثيرًا بوصّفِه نُقطة محورية ترتبِط بها كافة العُلوم، فَمِن الواضِح أن لكلّ العُلوم علاقة تكبُر أو تصغر بالطبيعة البشرية، ومهما بَدَى ابتعاد بعضها عنها أحيانًا، إلاّ أنها تظلّ تعود إليها من هذا الممرّ أو ذاك، فحتى الرياضيات، الفلسفة الطبيعية والدين الطبيعي تستنِد إليها، وبمقياس ما على عِلم الإنسان، لأنها تنتمي إلى معرفة الناس ويحكم عليها بواسطة قواهم وقدراتهم[38]. لا يُمكن للعُلوم أن تنفصِل عن الطبيعة البشرية، فعلاقتها بها إمّا أن تكبر أو تصغُر لكنها لا تنقطِع، ومهما

ابتعدت فإنها تعود إليها، حتى بالنسبة للعُلوم الرياضية وفلسفة الطبيعة Natural philosophy والدين الطبيعي فإن جميعها يرتبِط بالطبيعة البشرية، ويرتدّ هذا الأمر إلى كون هذه العُلوم تقع ضِمن معرفة الناس ويحكمون عليها من خِلال طاقاتهم وإمكاناتهم، لنؤكّد مرّة ثانية على مسألة الاعتقاد. سيجذِب مشروع عِلم الإنسان **"كانط"** من الناحية المعرفية والأخلاقية والتربوية، فبعد أن دعاه إلى الجُرأة على استخدام عقله، وأسّس لأخلاق عالمية، خصّه بالتربية وجعله المخلوق الوحيد الذي ينبغي تربيته من ناحية الرّعاية (التغذية والتعهّد) والانضباط والتعليم المرتبِط بالتكوين Bildung. ومن خِلال هذه الزوايا الثلاث، يكون الإنسان رضيعًا وتلميذًا وطالبًا[39]. بهذه النوعية من التربية يكون الإنسان في حالة تعلُّم دائِمة، وهو الكائن الوحيد الذي تنطبِق عليه التربية من ناحية الرعاية والانضباط والتعليم لما يملِكه من استعدادات لذلك. وبالمُجمل حَظي الإنسان بقيمة عالية لدى **"كانط"**، الذي قال أن "كلّ غرض لعقلي (اعتباريًا أم عَمَليًا) يتوحّد في الأسئلة الثلاثة التالية:

1.ماذا يُمكن أن أعلم؟

2.ماذا عليّ أن أعمل؟

3.ماذا يُمكن لي أن آمل؟"[40]. والملاحظ على هذه الأسئلة أنها جاءت لتُحدِّد الإمكان ومَدَى الحُدود، فالعقل النظري والعقل العَمَلي له ما يُعيّن حُدوده. ولقد صرّح في أيامه الأخيرة أن هذه الأسئلة الثلاثة الكبرى تتلخّص في النهاية في سؤال: ماهو الإنسان؟ والإجابة عليه هي من مُهمّة عِلم الأناسة[41]. والنتيجة أن مشروع عِلم الإنسان سيكون جوهر البحث الكانطي كمَا كان ركيزة جُهود **"هيوم"**، فالأسئلة الثلاثة التي حدّدت فلسفته ومهمّته يُلخّصها في سؤال واحد: ماهو الإنسان؟ البحث عن طبيعته وحُدودها وفي أبعادها المعرفية والأخلاقية والتربوية والجمالية، والعِلم الكفيل بالإجابة هو عِلم الأناسة، وبهذا يكون مشروع عِلم الإنسان اشتراك فلسفي قلِق لكلّ منهما. يتّضِح من خِلال ما تقدّم مَدَى تقارُب والتقاء أفكار **"هيوم"** و**"كانط"**، وتأثُّر الألماني بالإنجليزي فلقد تجسّدت قولته: لقد أيقظني من سُباتي. ولكن هذا لا يجعل منه نُسخة عنه أو ينفي عدم وجود اختلافات بينهُما، لأن التأثّر فضيلة المعرفة، هذا من جهة ومن جهة ثانية لكلّ فيلسوف شخصية خاصّة وجهاز مفهومي مخصوص ورؤية العالَم View of the world بإسمه، مِمّا جعل وجود نقاط افتراق بينهُما تُضاف إلى سابقتها التي كانت للاتّفاق، وكلاهُما يؤسِّس للعلاقة بين الفلسفتين.

4.في جوانب الاختلاف و افتراق المواقِف :رغم حقيقة تعايُش الأفكار ودعمها لبعضِها البعض وانتقالها من عقل إلى آخر، إلاّ أنّ هذا الأمر لم يمنع حُصول اختلافات من ناحية المبدأ والنتيجة، وافتراقات في المواقِف والرؤى، وتُعدّ هذه الخاصّية بحقّ سِرّ استمرارية الفكر الفلسفي حتى في أحلك الأزمنة التي تشهد

تضييقًا على الفلسفة. بالضبط، سيتجلّى مع إبراز مناحي الاختلاف ونقاط الانفصال بين **"هيوم"** و**"كانط"** التي لا تقطع العلاقة بخِلاف بل على النقيض تُكمِّلها.

1.4العقل بين العقلاني النقدي والحِسّي الشكّي

يتعيّن أول اختلاف بين **"هيوم"** و**"كانط"** في النزعة، فالأول حسّي شكّي والثاني عقلاني نقدي مِثالي، وإن كان النقد قد حَضَر بالطبع في الحِسّية الريّبية والشكّ توسّط مراحل النقدية الكانطية بعد الوثوقية وقبل النقد. نلحظ في البِداية وبشكلٍ واضِح تبايُن آرائهما بشأن العقل من ناحية كيفية التعامل معه ومن ناحية مكانته؛ حيث انتقد **"هيوم"** العقلانيات المجرّدة السائِدة في عصره ومناهج التعاطي مع العقل، والقول بإمكان اكتشاف المبادئ النهائية للطبيعة البشرية وصِفاتها الأصلية، لأننا لا نستطيع تجاوز التجربة، ويصِف من يزعُم إمكانيته في الاكتشاف أنه وقِح وواهِم[42]. إذن، ستكون دِراستنا عبارة عن مُقاربة فقط وليست مُطابقة، وأنه من غير القُدرة أن نلِج العُمق وندّعي بأنّنا اكتشفنا النهائي والأصلي. وهذا ما يُسمّى بالاستبدال المنطقي؛ إذ يُمثِّل الحقّ من عِلم الطبيعة البشرية بالنسبة إليه هو التحوّل من عِلم نفس للفكر إلى عِلم نفس تأثّرات الفكر[43]؛ بمعنى التخلّي عن منهج طرق الفكر في حدّ ذاته والانهمام باكتشاف النهائي فيه، باستبداله ببحث عِلم نفس تأثّرات الفكر؛ أيّ الدوافع النفسية والانفعالية التي تؤثّر في الفكر، بنزعاته وعواطِفه، وهُنا يجعل **"هيوم"** من العقل تابِعًا للعاطفة، ولا يُفهم الأمر على أنه إنقاص ولكن أيضًا ليس إعلاء كبير من المكانة، فالعقل في منظوره لا يعدو أن يكون غريزة رائعة[44]. تُسيّر العاطِفة وهي أداء طبيعي عَمَل الطبيعة البشرية ومن بينها جزئِها العقلي. حقًا إن عواطِفنا تُؤثِّر فينا، لكن ليس لدرجة أن يكون العقل في مُنتهاه غريزة رائعة، فهو أيضًا يمتلِك ما يُؤثّر به في العاطِفة ويُوجّهها. في حين سيُبدي **"كانط"** رؤية مُغايرة تمامًا، فلقد تكثّف جُهد في مشروعه نقد العقل المحض، والمقصود بالعقل المحض أو الخالِص هو الذي يحتوي مبادئ معرفة شيء ما على نحو قبلي تمامًا، ولأنّنا لا نمتلِك حاليًا القُدرة الكافية للتفصيل في ذلك النقد، فإننا سنُسمّي العِلم الذي يكتفي بمُحاكمة العقل المحض وحُدوده بمثابة تمهيد لمنظومة العقل المحض[45]. والقبلي هو ما يُنتج من بنية العقل المحض الذاتية من دون مُشاركة البعدي التجريبي، ولهذا فإنه خصّ العقل المحض بالنقد بنوعٍ من التعمُّق رُغم أنه صرّح بأنه مُجرّد تمهيد لمنظومة. وقد أعطى **"كانط"** مكانة محورية للعقل في إنتاج ما يُسمّى بالشروط الأولية للمعرفة وهي شُروط قبلية، وتبنّى مفهوم الثورة الكوبرنيكية في خلخلة المراكز باعتماد منهج خاصّ يقوم على الإلزام بأن تنتظم موضوعات المعرفة وِفقًا لمعرفتنا، وليس أن العقل هو من ينتظِم وِفقًا للموضوع[46]. يكون بذلك العقل هو المركز الذي تأتي

إليه الموضوعات وتنتظِم بحسّب شُروطه الأولية التي يُنتِجها قبليًا، وبهذا يختلِف مع **"هيوم"** اختلافًا كبيرًا في تحديد طريقة التعامل مع العقل وفي تعيين مكانته.

2.4فكرة السببية

لقد فجّر **"هيوم"** ما يُعرف بمُشكلة الاستقراء The problem of induction وزعزع بُنيان النظريات العقلية وفنّد التفسيرات التجريبية إزّاء فكرة السببية Causality[47] كأساس للعِلم، بأن أقامها وِفق منظور نفسي وفسّرها بأنها حاصِل اعتياد وألفة، فالنوع الإنساني بعامّة يكتسِب بطول العادة هيئة للذهن تجعله كُلّما ظهر السبب يُخمّن تخمينًا مُباشرًا وواثِقًا قرينه العادي، ولا يتصوّر بشكلٍ سهل أن ينتُج عنه حدث آخر، فتجده من دون حرج يُعيّن سببًا مُناسبًا ويُفسِّر الكيفية التي يُحدث بها آثره، إلاّ في حالات ظهور الخوارق كالزلازل والطواعين والأعاجيب[48]. يُنكر إذن **"هيوم"** التفسير العقلي والتجريبي للسببية ولا يُنكرها هي في حدّ ذاتها، ويُفسّر اعتقاد العقل البشري بفكرة السببية وارتباط الحوادث بصفة ضرورية بأنها نِتاج لعادة نفسية؛ حيث ومن خِلال المشاهدة المتكرّرة للحوادث المتعاقبة، يعتاد على رؤيتها واقترانها عبر علاقة السبب والنتيجة، فحينمَا يحدث أمر معين يتوقّع مُباشرة ومن دون شكّ نتيجته المقترنة به دائِمًا، إلاّ في حالات استثنائية مثل: خوارق الطبيعة. سيتّفِق **"كانط"** معه في ضرورة تصوّر السببية وعدم الاستغناء عنه، وأنه لا يحتوي ضرورة منطقية، وأنه ليس بديهية، غير أنه يختلف معه بإطلاق في تفسير ضرورة السببية، ويُنكِر عليه تفسيره لها على أنها ضرورة ذاتية نفسية[49]. فالسببية إحدى الشُروط أو المقولات الضرورية لإمكان المعرفة، وبالنسبة إليه هذه "الشروط هي عبارة عن مبادئ، هي في آن واحد تركيبية وقبلية، هي تركيبية لأنها ليست صورية محضة كالمبادئ المنطقية، وهي قبلية لأنها لا تستخلص من التجربة، بل هي شروط للتجربة (...) أمّا العادة التي يقول بها **"هيوم"** لا يمكن أن نؤسّس ترابطًا موضوعيًا، بل فقط ترابطًا ذاتيًا للإحساسات"[50]. هذه الشروط ومن بينها السببية هي من تمنح المعنى للمُعطيات التجريبية وهي من تجعل المعرفة مُمكنة، فهي تركيبية قبلية لها صِلة بالتجربة ولكنها لا تُستمدّ منها، ويتّضح أن غرضه إقامة نوع من الموضوعية العِلمية، ولهذا وصف تفسير **"هيوم"** بالعادة أنه مُجرّد ترابُط ذاتي للإحساسات وليس ترابُط موضوعي.

3.4الزمان والمكان

يجعل **"هيوم"** بدفعٍ من نزعته الحِسّية، الزمان Time والمكان Space مُتوقِّفين على رؤيتهما كشيء نراه أو نلمسه، فهُمَا ليسَا فكرة قبلية في الذهن، وإنّما تنتقِل فكرتهما إلى الذهن عن طريق حاستيّ الرؤية واللمس[51]. سيختلِف **"كانط"** مع هذا المنظور، ويُدرِج مقولتيّ الزمان والمكان ضِمن الشُروط أو المبادئ الأولية لإمكان تأسيس قضايا تركيبية قبلية، فالزمان يُمثِّل الشرط الصوري القبلي A priori formal condition للظاهرات بعامّة، وأمّا المكان باعتباره صورة محضة لجميع الحُدوس الخارجية، فإنه يقتصِر بحسّبِه شرطًا قبليًا على الظاهرات الخارجية فقط[52]. فالزمان والمكان بهذا التوصيف هُمَا صورتين للحِسّ الداخلي والخارجي، لكنهما لا ينبثقان عن التجربة بل هُمَا عبارة عن شرطين صوريين قبليين. وهُناك نقاط أخرى يختلفان ويفترقان عندها، مثل: مصدر القيمة الخُلقية وطبيعتها[53].

5.خاتمة:

خِتامًا، وبعد كلّ ما تمّ طرحه حول العلاقة التأثيرية التي تجمع بين **"هيوم"** و**"كانط"**، بالتحديد في حُضور الشكّ في إيقاظ مَلَكة النقد. نُدرِك قيمة الرابِطة القوّية التي تؤلِّف بينهُما بموجب فضيلة التلقّي والالتقاء مع الحِفاظ على خُصوصية الاختلاف والافتراق، التي لن تضرّ بشيء، بل على النقيض فهي سِرّ استمرارية الفلسفة بطرح الجديد. ومن بين الاستنتاجات المتوصّل إليها بعد هذه المقاربة التي أرادت إبراز تأثير **"هيوم"** في **"كانط"** بشكّيته في إيقاظ مَلَكة نقديته، إضافة إلى إلقاء الضوء على بعض جوانِب رفض هذا التأثير في كلّيته، نصِل إلى أن حُضور **"هيوم"** كان قويًّا في عصره أو فيمَا بعده، فالمتداول أكثر أنه أسهم في تشكيل روح فلسفة العِلم المعاصر، ولكنه أيضًا وقبل ذلك كان له إسهام في فلسفة العِلم الحديث وما **"كانط"** إلاّ حُجّة إثبات ذلك. كمَا يُمكِن الاستنتاج، أن ابستمولوجيا **"هيوم"** مُستندة إلى عِلم النفس والتفسيرات النفسية في ضوء اشتغال الطبيعة البشرية، أمّا **"كانط"** فغلب عليه طابع الابستمولوجيا النقدية، المعرفية المحضة. واستثمارًا لهذه الفكرة المتعلِّقة بمنطق الحُضور والتلقّي، ندعو المشتغلين بالشأن الفلسفي في الفكر العربي إلى مُراجعة المفهوم المتداول حول تلاقي الأفكار وتلقّيها، فليس كلّ تلقّي مُتّهم مُباشرة بالتقليد والاجترار حتى لو كان من الفكر الغربي، لأن الذي تلقّى وتأثّر قد يُضيف إمّا بالتعديل والتحوير أو بتجاوز الفكرة بعد استيعابها، فليس الجميع على وتيرة واحِدة، وأن مفتاح الإبداع لن يحصُل بالقطيعة وإعلان هَشاشة طُروحات كلّ من يقرأ للآخر ويُمارس إجراء المنقول، فصحيح أن المنقول مشروط بالمأصول، لكن حتى المأصول من غير المنقول انحباس في أسوار الماضي أو اختناق في مضائِق الحاضِر، لِدى ينبغي الانفتاح

والامتتاح لكن طبعًا من دون الانسلاخ والاستنساخ. ويشمُل الحُضور الفكري كل الإمكانات للتلقّي، من مشارِب خاصّة تُراثية أو مشارب غيرية، من السابقين أو المعاصرين، فالأفكار تتعايش ولو في غير أزمنتها وأمكنتها.

6.الهوامش:

(1) دولوز جيل، غواتاري فليكس، ماهي الفلسفة، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1997،1، ص 5.

(2) مايكل هيكت جينيفر، تاريخ الشكّ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014، ص 9.

(3) الجرجاني عبد القاهر، التعريفات، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص 110.

(4) بدوي عبد الرحمان، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص 16.

(5) لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ص 301.

(6) المرجع نفسه، ص 283.

(7) سعيد جلال الدين، المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، (د.ط)، 2004، ص 475.

(8) لمريني فريد، الفلسفة والنقد مراصد إبستمولوجية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، القاهرة، تونس، ط1، 2016، ص 6.

(9) هيوم ديفيد: "فيلسوف ومؤرخ إنجليزي (...) كان هيوم ذا نزعة حسّية مغالية. ويظهر هذا جليًا من أول عبارة يقولها في كتابه البكر والشامل لمذهبه وهو كتاب "بحث في الطبيعة البشرية" حيث يقول: كل إدراكات العقل الإنساني ترجع إلى حسّين متميزين اسمهما: الانطباعات والأفكار. والامطباعات هي وحدها الأصلية، أمّا الأفكار فما هي إلاّ نسخ عن انطباعاتنا (...)". (بدوي عبد الرحمان، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، ص ص 611_ 614).

(10) كانط إيمانويل: "أعظم فلاسفة العصر الحديث (...)، كان **"كانط"** ذا نزعة عقلية تامة، ولهذا أحبّ العلوم الدقيقة؛ أعني الرياضيات، والعلوم الطبيعية القائِمة على التجربة والملاحظة، مثل: الفيزياء والفلَك ونشأة الكون. لكنه اتّخذ منها نقطة انطلاق لتكوين نظرة شاملة في الكون؛ أعني نظرة فلسفية تنتظم المعرفة البشرية بعامة". (المرجع نفسه، ص ص 269 _270).

(11) هيوم ديفيد، رسالة في الطبيعة البشرية، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2016، ص 12.

(12) هيوم ديفيد، مبحث في الفاهمة البشرية، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2008، ص 15.

(13) حنان، الفلسفة النقدية لكانط، طبيعتها وتطبيقاتها، مجلة الأستاذ، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الفلسفة، ع 203، 2012، ص 645.

(14) كانط إيمانويل، نقد العقل المحض، مركز الإفتاء القومي، بيروت، ط2، 1987، ص 358.

(15) المصدر نفسه، ص 368.

(16) هيوم ديفيد، تحقيق في الذهن البشري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص 12.

(17) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(18) إبراهيم زكريا، كانت أو الفلسفة النقدية، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط2 (د.ت)، ص ص 10 _ 11.

(19) روائع العُلوم، المتعة في الفيزياء والرياضيات والعُلوم الطبيعية والإنسانية، نقد العقل الخالص https://eltawil.org /sciencewonders/? p=2566
تمّ التصفّح بتاريخ 21 ديسمبر 2022، الساعة: 18:00.

(20) Hume David, A treatise of human nature, edited by david fate norton and mary j. norton, oxford university press, new York, 2007, p 7.

(21) نجيب محمود زكي، ديفد هيوم، مؤسسة هنداوي، مصر، (د.ط)، 2021، صفحات: 46 _ 47 _ 48.

(22) المرجع نفسه، ص 48.

(23) كانط إيمانويل، نقد العقل المحض، مصدر سابق، ص 45.

(24) Kant Immanuel, critique of pure reason, translated and edited by paul guyer, allen w. wood, Cambridge university press, united states of America, new York, 1998, p 387.

(25) إبراهيم زكريا، كانت أو الفلسفة النقدية، مرجع سابق، ص 71.

(26) هيوم ديفيد، مبحث في الفاهمة البشرية، مصدر سابق، ص ص 91 _ 92.

(27) هيوم ديفيد، تحقيق في الذهن البشري، مصدر سابق، ص 17.

[28] للتفصيل في الموضوع، أنظر: كانط إيمانويل، نقد العقل المحض من صفحة: 45 إلى صفحة: 54، بدوي عبد الرحمان، موسوعة الفلسفة، ص ص 273 _274.

[29] كانط إيمانويل، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة متبوع بأسس ميتافيزيقا الأخلاق، موفم للنشر، الجزائر، 1991، XII.

[30] المصدر نفسه، ص 14

[31] المصدر نفسه، ص 173

[32] هيوم، ديفيد، محاورات في الدين الطبيعي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1980، ص 77.

[33] هيوم، ديفيد، رسالة في الطبيعة البشرية، مصدر سابق، ص 117.

[34] المصدر نفسه، ص 142.

[35] للتفصيل أنظر: كانط إيمانويل، نقد العقل العملي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، من صفحة: 215 إلى صفحة: 230.

[36] زغلول صابرين، مطارح كانط بين سبيل الإلحاد ومسلك الإيمان العقلي، مجلة الاستغراب، خريف 2017، ص ص 165 _ 166.

[37] مصطفى إبراهيم إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، (د.ط)، 2000، ص 321.

[38] Hume David, A treatise of human nature, op.cit, p 4.

[39] كانط إيمانويل، ثلاثة نصوص، تأمّلات في التربية، ماهي الأنوار؟، ما التوجّه في التفكير؟، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2005، ص 11.

[40] كانط إيمانويل، نقد العقل المحض، مصدر سابق، ص 385.

[41] فرنسوا دورتي جان، فلسفات عصرنا، تياراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، بيروت، ط1، 2009، ص 48.

[42] هيوم ديفيد، رسالة في الطبيعة البشرية، مصدر سابق، ص 15.

[43] دولوز جيل، التجريبية والذاتية، بحث في الطبيعة البشرية وفقًا لهيوم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999، ص 5.

[44] عبد المعطى فاروق، ديفيد هيوم الفيلسوف الأديب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص 128.

[45] كانط إيمانويل، نقد العقل المحض، مصدر سابق، ص 54.

[46] المصدر نفسه، ص 6.

[47] السببية (العلّية): مقولة فلسفية تدلّ على الروابط الضرورية بين الظواهر، التي تحتّم الواحدة منها (وتسمّى السبب أو العلّة) الظاهرة الأخرى (التي تسمّى بالمسبّب أو المعلول أو الأثر). وضع من لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، الموسوعة الفلسفية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 2006، ص 240.

[48] هيوم ديفيد، تحقيق في الذهن البشري، مصدر سابق، ص 101.

[49] مصطفى إبراهيم إبراهيم، منطق الإستقراء "المنطق الحديث"، دار المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، 1999، ص 121.

[50] الجابري محمد عابد، مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطوّر الفكر العِلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 2002، ص 305.

[51] هيوم ديفيد، رسالة في الطبيعة البشرية، مصدر سابق، ص ص 57 _ 58.

[52] Kant Immanuel, critique of pure reason, op.cit, p p 180 _ 181.

[53] للتفصيل في الموضوع، أنظر الجزء الثالث "في الأخلاق" من كتاب الطبيعة البشرية **"لهيوم"**، وكتب: أسس ميتافيزيقا الأخلاق، نقد العقل العملي، مشروع للسلام الدائم، الدين في حدود مجرّد العقل **"لكانط"**.